

من علماء فاس وسلا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وبداية الثاني عشر
الهجريين مسعود بن محمد جموع جد آل الفاسي الذين بسلا 1119/1050 (1707/1640)

ذ. عبد الإله الفاسي

ولد من أب هو محمد بن علي ، وأصله من سجلماسة ولكن لا يعرف من هو أول أسلافه الذي بادر إلى مغادرتها نحو فاس ليستقر نهائيا ويخلف عقبه فيها ، فلا نعلم أهو أبوه أو جده أو جد أبيه أو هو أحد أجداده الأبعدين وفي أي تاريخ حدث هذا الانتقال . ونعلم فقط أن مسعود بن محمد ولد بفاس سنة 1050 للهجرة التي توافق 1640م والتي تقع في الفترة الانتقالية المضطربة الواصلة بين الدولة السعدية والدولة العلوية حيث تصارعت عدة قوات سياسية على الحكم في المغرب من دلائيين وسملاليين وبوعصامييين وغيرهم.

عرف مسعود بلقب جموع (بتشديد الميم) وهو اسم أسرة عريقة بفاس اشتهر منها في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي الفقيه العدل عبد الخالق أحمد جموع¹ ، ولا علم لنا بالعلاقة بين هذه الأسرة والعالم مسعود .

نشأ مسعود جموع بفاس ودرس بها مبادئ العلوم وأصوله فأخذ النسخ عن سيدي محمد بن أحمد بن أبي المحاسن الفاسي(ت1084) وأخذ الحديث عن سيدي أحمد بن حمدان التلمساني ، والقراءات عن سيدي محمد بن أحمد المريني وأجازه في القراءات السبع والعشر ، كما تتلمذ على الشيخ أبي زيد عبد الرحمان بن قاسم الفاسي(ت1082) والشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي (ت1116) وغيرهم.

أما الذين أخذوا عنه فمنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (ت1129)² وأبو عبد الله محمد الطيب بن أحمد الفاسي(ت1134) وقد أورد القادري³ ما يلي "قال الشريف الأديب سيدي محمد بن الطيب في كتابه المسمى الأنيس المطرب فيمن لقينته من أدباء المغرب⁴ قرأت عليه يعني صاحب الترجمة ختمة من كتاب الله عز وجل والشمائل للترمذي وصحيح البخاري والشفاء لعباض والاكتفا للكلاعي وسيرة اليعمرى والنصيحة الكافية لسيدي زروق وألفية ابن مالك وتلخيص المفتاح للسعد ، وكتابه المسمى "نفائس الدرر في سيرة خير

¹-أنظر عبد الكبير الكتاني ؛جنة الآس مخطوط.أميلي ؛معلمة المغرب ج9ص3094

²-هو الذي خلف أباه محمد (بفتح الميم) على زاوية تمكروت وعينه أبوه عليها في حياته دون إخوته بالرغم من أنه ليس أكبرهم سنا ولا أكثرهم علما ، وقد ذاع صيت زاويته ذيو عا كبيرا.

³-محمد بن الطيب القادري ؛ نشر المتاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، ج3 تحقيق المرحوم محمد حجي وأحمد التوفيق ، نشر وتوزيع مكتبة الطالب ، الرباط 1986 ، ص174.

⁴-محمد بن الطيب بن أحمد بن يوسف بن أحمد العلمي الفاسي

البشر". ومن تلامذته أيضا موسى بن محمد الدغمي السلوي (ت1140) وأبو العباس أحمد بن عاشر الحافي السلوي (ت1163).

لم يسجل عن الفقيه مسعود أنه قام برحلات علمية عدا رحلته الأخيرة إلى سلا التي بها توفي ودفن . فهو لم يغادر فاس -على الأرجح- وهي المدينة الزاخرة بالعلوم والعلماء ، ظل يغرف منها ومنهم ، فكفته -كما يظهر- عن الرحلة في طلب العلم من جهات أخرى.

وصف فقيهننا باوصاف العلم والصلاح فقليل عنه إنه كان فقيها مالكيًا نزيها عالما علامة دراية وليا صالحا محدثا راوية أستاذًا مجودا حافظًا⁵ . ووصف بكونه صبورًا حليما جميل المعاشرة جوادا كثير التلاوة والصلاة على النبي (ص) دينا ورعا ، له معرفة بالتفسير والحديث والفقه لا يرى إلا مدرسا أو تاليا أو ناسخًا⁶ . ومن خلال هذه الأوصاف لنا أن نتصور سمو أخلاق الرجل ومدى إفادته للناس بوفرة علمه ومكانته المشوبة بالاحترام لا كعالم فقط بل كفقيه ورع له منحى تصوفي.

كان الشيخ مسعود من أبرز أساتذة القرويين لعلمه بفني المنقول والمعقول ، وذكرت بعض المصادر أنه كان يدرس في علوم شتى كالحديث والسير والتصوف واللغة والنحو والبيان ، وكان ملما بأحكام القراءات⁷ ولوعا بالتأليف وبالأسانيد العالية في رواية الكتب.

وقد لخص محمد بن علي الدكالي مؤرخ سلا المعروف (1285-136/1868-1945) سيرة عالمنا مسعود فيما أنشده:

ومنهم الشيخ أبو سرحان	علامة القطر علي الشان
مسعود إلى جموع	ذاهبة في غير موضوع
محدث راوية مؤلف	أستاذ في العشر فذا يعرف
وكان محبوبا جميل المخبر	ليس يمل درسه للمحضر
جم التأليف وجلها عرف	وذكرها أوسع مما يتصف
وملئت بكتبه الخزائن	وازينت بعلمه المحاسن
قال صفيه أبو عمران	كان صبوراً تالي القرآن

⁵ www.arrabita.ma موقع الرابطة المحمدية على الأنترنت تحت عنوان "أبو سرحان جموع الفاسي"

⁶ -محمد بن الطبيب القادري ، نشر المثاني ، ص174

⁷ -المصدر والصفحة نفسهما

مشتغلا بما يهم من فكر مصليا على النبي في مصر

جميل أخلاق صموتا دينيا محببا لمن نأأودنا⁸

نلاحظ في هذه الأبيات ورود اسم أبي عمران صديقه فنتساءل من كان أبو عمران صفيه هذا؟ لكن المصادر التي وقفنا عليها لا تعطينا جوابا مع الأسف.

ونجد صورة أخرى للعالم مسعود عندما ورد اسمه كمهتم مطلع على ضخامة عدد الكتب العربية الموجودة في الأندلس وقته فقد قال أحد المؤرخين المغاربة المرموقين "فهذا علامة مغربي ، مسعود بن محمد جموع الفاسي نزيل سلا ودفينها تثير اهتمامه وفرة الكتب بالأندلس"⁹.

نتساءل هل تعرف عالمنا على هذه الكتب عن طريق مطالعته للمخطوط الذي ضم كتب الأندلس هاته والمكتوب باللاتينية (انظر الهامش 8) قبل أن يصبح المخطوط مطبوعا بعد وفاته بأكثر من ستة عقود أم كانت معرفته بهذه الكتب أو بالأحرى بأهمية عددها عن طريق السفر إلى العاصمة الإسبانية ورؤيتها في عين المكان أي في الإسكوريال؟

من المستبعد أن يكون الجواب عن التساؤل الثاني إيجابيا لأن المصادر لا تذكر أن عالمنا سافر إلى الضفة الشمالية ولا وجود لرحلة له مدونة على غرار الرحلات المعروفة ، فيبقى الجواب عن السؤال الأول بالإيجاب هو الوارد في هذه المسألة.

نعلم أن الشيخ مسعود لما نزل بمدينة سلا استقر وتنازل عقبه بها ،-اعتمادا على ما أورده المؤرخ الناصري عندما قال بأنه هو جد الفاسيين الذين بسلا¹⁰. ولا تتحدث المصادر والمراجع عن مصير ذريته اللهم ما جاء في تسميته هو نفسه إذ لقب بأبي سرحان أي أنه رزق بابن سمي سرحان ولكن لا ذكر لسيرة هذا الابن لا من قريب ولا من بعيد مما يدل على أنه لم يقم في حياته بدور ترك أثره في تاريخ عائلته وتاريخ مدينته الثانية سلا أما مدينته التي تحظى بأكبر احتمال على أنها مدينته الأولى ومسقط رأسه فلم يذكر اسمه فيها حسب علمنا ، على عكس أبيه العلامة ونجهل أيضا كل شيء عن ابناء وأحفاد الشيخ مسعود بمدينة سلا والغالب أن أكثرهم تعاطى التجارة والحرف أي أنهم كانوا مغمورين كأفراد من طبقة أهل الحرف . وكان علينا أن نتظر نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لنعثر على اسم أحد الأفراد حاملا اسم الفاسي بسلا اشتغل كأمين لمرساها في عهد السلطان مولاي عبد العزيز وهو الأمين أحمد الفاسي.

⁸-محمد بن علي الدكالي، إتخاف أشراف الملا، مأخوذ من الأنترنت من موقع تحت اسم مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث.
⁹-المرحوم محمد المنوني "ترجمة مغربية لفهرس الإسكوريال" وهو فهرس مترجم وضعه باللاتينية ضوء ميكائيل الغزيري اللبناي للمخطوطات الموجودة بالإسكوريال ، طبع في مدريد في مجلدين كبيرين ظهر أولهما سنة 1770
¹⁰ -أحمد بن خالد الناصري الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتاب الدار البيضاء ، طبعة 1956 ، ج7، ص110 .

أتى أحمد بن عاشر الحافي وهو من تلامذة الشيخ مسعود بأسباب نزوح أستاذه إلى سلا فقال: "ولما أراد الله ظهوره وانتفاع الناس به أتى زائرا لصلحاء سلا فنزل بزاوية الولي الصالح سيدي أحمد حجي فاجتمع عليه طلبة سلا من أهل الزاوية المذكورة لنشر العلم فساعفهم في ذلك ولازم التدريس بها وبالمسجد الأعظم". وحسب كلام الحافي ، لم يكن انتقال العالم مسعود إلى سلا إلا من أجل زيارة الصلحاء ، لا من أجل طلب العلم ، فهل كان التماس طلبة سلا من العالم بأن يخصصهم بدروسه في الزاوية وفي المسجد سببا كافيا ووحيدا للاستقرار النهائي بمدينة التي أصبحت من بعده مدينة ذريته ، أم أنه كان ينوي العودة إلى مدينته فاس لو لم تعالجه المنية بعد سنة ونيف من حلوله بسلا ؟ لانعلم نية فقيهما ولاندرى هل كان يعتبر سلا فقط محطة مؤقتة . وعلى كل حال شاءت الأقدار أن يصبح نسله الذي حمل اسم الفاسي سلاويا دارا وقرارا.

وتتلمذ على الفقيه مسعود تلامذة بالرباط وسلا كما في فاس ، وأجاز بعضهم كابن عاشر الحافي المذكور وأبي مدين حجي¹¹ وغيرهما.

وترك عددا لا يستهان به من المؤلفات التي تدل على مكانته العلمية العالية وعلى تنوع معارفه بلغت ثلاثين مصنفا معظمها في القراءات والسيرة والفقه واللغة والحديث والعقائد ، ومنها كتاب "الروض الجامع في شرح الدرر اللوامع"¹² وكتاب "كفاية التحصيل في شرح التفضيل" وكتاب "نفائس الدرر في أخبار سيد البشر" وكتاب "الدرة المضيئة في خير سيد الخليفة" وكتاب "مرشدة الصبيان ومبصرة لمن أرادها من الإخوان"¹³. وله تأليف في القراءة والرسم وشرح على الأجرومية وحواشي على الألفية . وله الدرر الوسطى والروضة الصغرى.

في صيف سنة 1119 أصيب الشيخ مسعود بالحمى ، ولم تمض إلا بضعة أيام حتى أودت بحياته رحمه الله يوم الثلاثاء من السنة الموافق 16 غشت 1707. وقد وافته المنية في الزاوية التي اتخذها منبرا لإلقاء دروسه أي زاوية سيدي أحمد حجي ، وشهد جنازته أهل العدوتين الرباط وسلا ، وقبره معروف بالزاوية الحجية . وذكر محمد بن علي الدكالي أنه لما دنت وفاته أخبر أنه رأى في منامه كأنه بجامع القرويين وهو ملآن بالناس ، ثم شرعوا في توديعه والخروج من المسجد إلى أن تركوه وحده في المسجد ، فأولها بأنها القبر ، وأن وفاته قد قربت ثم لم يبق بعد ذلك إلا أياما ومرض بالحمى ، فأوصى بما يليق به.¹⁴

11 - عبد الإله الفاسي ، مادة مسعود أبو سرحان جموع ، معلمة المغرب ، ج 19 ، ص 6419 (ترجمة مختصرة)

12 - ينفرد الفقيه مسعود مع معلمه ابن القاضي في ذكر مؤلفات أبي العباس أحمد بن محمد الزاوي المعروف بتأليفه في القراءات والعربية والتي ضاعت أو غرقت في النكبة التي ذهب فيها ومن معه من جلة العلماء والقراء. وقد ذكر مسعود جموع هذه المؤلفات في كتابه "الدرر اللوامع" وفي كتابه "الروض الجامع".

13 - طبع ، تحقيق طارق طاطمي . أخذت هذه المعلومات من الأنترنت مجردة من تاريخ الطبع.

14 - محمد بن علي الدكالي ؛ الإتحاف الوجيز (تاريخ العدوتين) تحقيق المرحوم مصطفى بوشعراء. منشورات الخزنة الصبحية بسلا 1986. ص 107

طبعت بعض مؤلفات عالمنا ومنها كتاب مرشدة الصبيان الموماً إليه سابقا الذي نشرته الرابطة المحمدية للعلماء¹⁵. وهذا التأليف -حسبما جاء في موقع الرابطة على الأنترنت¹⁶ - موجه إلى الصبيان ألفه صاحبه على غرار "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" لعبد الواحد بن عاشر الأندلسي (ت1040) فسار على منواله واستقى من فوائده، إذ ارشد إلى ما يتوجب على الصبيان معرفته من أركان الإسلام والإيمان ، وما ينبغي أن يتهدب به من القيم الحميدة والشيم المجيدة ، وفصل القول في أحكام الطهارة والصلاة لتؤكد حاجة الصبي إلى تعلمها وضمن رسالته نصائح وتوجيهات لا يستغنى عنها المسلم في تهذيب نفسه وتصحيح سلوكه . كما طبع كتابه كفاية التحصيل في شرح التفصيل الذي حقق من طرف السايب عبد الرحمان¹⁷ تحت إشراف الأستاذ التهامي الراحي.

وأخيرا طبع كتابه الموسوم "نفائس الدرر من أخبار سيد البشر " ¹⁸ وهذا الكتاب خاص بالسيرة النبوية ، وقد تبين أنه من أنفس المصنفات المغربية المتأخرة في السيرة النبوية نظرا لشموله معظم أخبار رسول الله (ص) من ولادته وبعثه وما تلاها من وقائع وحوادث وملاحم ومناقب إلى حين وفاته ثم استناد مؤلفه في جمع مادته على مصادر متنوعة من أمهات كتب السير والتاريخ والحديث والفقه مع حسن التنظيم والترصيف وسلوكه الترتيب الزمني الذي نهجه رائد المؤلفين في السيرة النبوية الإمام محمد بن إسحاق . وتتجلى قيمة الكتاب أيضا في كثرة استشهاد مؤلفه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وعنايته بتعريف الأعلام والأماكن وضبط الأسماء والأنساب وتحديد التواريخ التي وقعت فيها السرايا والمغازي والبعوث والوفود ، وحرصه أيضا على تأريخ الأحداث الكبرى من التشريع الإسلامي كفرض الصوم وتحريم الخمر وتحويل القبلة وفرض الزكاة... إلخ. ولعل أهم السمات المميزة لهذا الكتاب حضور شخصية مؤلفه العلمية وظهور مشربه الصوفي من خلال تعليقاته وتقريراته وتعقيباته المثبتة في مواطن كثيرة من هذا الكتاب.

¹⁵-مركز الدراسات وإحياء التراث ، سلسلة "لطائف التراث" 2005/1430، ص14

¹⁶-أنظر الإحالة رقم5

¹⁷-ذكر في موقع على الأنترنت تحت عنوان منتديات ستار تايمز وعنوان أطاريح جامعية، ملتقى أهل الحديث، فهرس الرسائل العلمية في القرآن وعلومه ، ملتقى أهل التفسير.

¹⁸-صدر عن مركز الدراسات والبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء ، دراسة وتحقيق طارق طاطمي والحسين الجيبة وعبد الحميد تدرارني وإبراهيم أمالك ومصطفى رفيق وحמיד آيت معيط ، ضمن سلسلة نواذر التراث ، الطبعة الأولى 2010/1431 في ست مجلدات.